"فانتازيّات" أسامة المسلَّم = السِّيَر الشعبية

حمزة المزيني

1446/5/13هـ

2024/11/14م

لفت إقبالُ الشباب والشابات الكبير على الروايات التي يكتبها الأستاذ أسامة المسلَّم الأنظارَ كما تشهد بذلك كثافة حضورهم وحضورهن في معارض الكتب العربية لمقابلة الكاتب واقتناء رواياته والظفر بتوقيعه على ما يقتنونه منها.

وكان هذا الإقبال الكثيف غير المعهود موضوعًا للنقاش فيما يُنشر في الصحف العربية شرقًا وغربًا وما يُتداول على منصات التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام بمتخلف أشكالها من بين مرحِّب به ومخوِّف منه. وأكثر من ذلك أنه صار موضوعًا للتنظير في محاولة لتفسير هذا الإقبال المنقطع النظير!

ومن أهم التنظيرات "الفانتازية" المنمَّقة الادعاءُ بأن هذا الإقبال برهان على ما يُروَّج له من انفضاض "الهامش" عن "المتن"، أو انفضاض القارئ العربي عن "النخبة" المتكبِّرة وأدبها. ويقابِل هذا التنظير المرحِّبَ تنظيرٌ متخوِّف يرى أن هذه الظاهرة خطيرة وتنبئ عن هشاشة ثقافة قراء هذه "الفانتازيات" وهو الأمر الذي سيؤول إلى خسارة الأدب العربي الرفيع جيلاً قارئًا يثمِّن هذا الأدب.

ولا يصدر هذا التنظير وهذا التخويف إلا عن نقاد "كبار" في السن، وهو برهان على أنهم لا يتذكرون من قراءاتهم إلا ما قرأوه بعد أن نضجت تجاربهم القرائية! ويعني هذا أنهم نسوا تجاربهم القرائية المبكرة.

أما أنا فأتذكر، مثل كثير من أبناء جيلي، أني لم أبدأ قراءاتي بكتب عباس محمود العقاد وطه حسين وأمثالهما من الكتّاب "النخبة" سواء الأقدمين أو المحدَثين. ذلك أن كُتُبهم ربما لم تكن في متناول يديّ، أو ربما كانت قراءتها صعبة عليَّ في أواسط المرحلة الابتدائية التي بدأت فيها القراءة.

لكني أذكر جيدًا أن قراءاتي المبكرة بدأت بقراءة السِّير الشعبية التي كانت أسهل مأخذًا وأطرف محتوى وأكثر حفزًا للخيال! ومن أشهرها تغريبة بني هلال والزير سالم وحمزة البهلوان وعنترة بن شداد وسيف بن ذي يزن والأميرة ذات الهمة والمياسة والمقداد، من بين سيَر أخرى. ومن منّا لا يذكر بساط الريح وعلاء الدين ومصباحه؟!

ونعرف جميعًا أن تلك السير مكتوبة بلغة بسيطة تقرب من العامية؛ وأهم من ذلك أن محتواها "فانتازي" بامتياز! إذ تحتوي على كم كبير من الخرافات والأساطير والمبالغات وعلى كثير من الأبطال الخارقين والجن والشياطين والسحرَة الذين يخرقون ببساطة قوانين الطبيعة بما يقومون به من أعمال تُبهر عقل القارئ المبتدئ وتشطح به في خيالات بعيدة مبتغاها أن يكون مثل أولئك الأبطال فائقي القوة أو الجن أو الشياطين القادرين على فعل المستحيلات التي تفوق قدرات البشر. وما زلت أتذكر تلك الخيالات اللذيذة التي أمتعتني بقراءة تلك السير الساذجة ـ كما أراها اليوم. والسؤال المهم: هل يمكن أن تغري مخيلتي تلك "الفانتازياتُ" اليومَ لو أعدت قراءة تلك السير؟ وهل سأجد فيها تلك المتعة التي كانت تستولي على خيالي لأقضي الساعات الطوال في قراءة كنت لا أريدها أن تتوقف؟

ومن هنا، يجب ألا يُزعج إقبال القراء الشباب والشابات الآن على "فانتازيات" أسامة المسلَّم الخائفين على مستقبل الثقافة العربية الجادة، كما يجب ألا يكون مدعاة لتنظيرات "فانتازية" منمَّقة تظن أنها فسَّرت ظاهرة غير عادية.

ومحصلة القول أن إقبال هؤلاء الشباب والشابات على هذه "الفانتازيات" يشبه إقبال من هم من جيلي على قراءة "فانتازيات" السير الشعبية الساذجة في نظري الآن. والمؤكد أنه كما تطور مستوى القراءة عند جيلي ليتخلى عن قراءة تلك السير ويدلف إلى قراءة الأدب الرفيع شعرًا ونثرًا، قديمًا وحديثًا، فسوف يشب هؤلاء القراء والقارئات مثل ما شببنا وسوف ينهجون ما نهجناه من التحول إلى قراءة الأدب العربي الرفيع.

ليس ما كتبتُه هنا انتقاصًا مما يكتبه الأستاذ المسلم؛ فما يكتبه مهم ويلبي رغبة هذه العقول الشابة في قراءة ما يثير خيالاتهم ويرضي ذائقاتهم بعيدًا عن عقلانية الأدب الرفيع التي لا يصبر على تجهُّمها إلا الكبار!

ومثلما أني مدين لتلك السير الشعبية "الساذجة!" لوضعها قدمي على العتبة الأولى للقراءة، فسوف يحمد الشباب والشابات بعد سنوات لـ"فانتازيات" أسامة المسلم أنها علَّقتهم بالقراءة ومثَّلتْ لهم العتبة الأولى لها وملأت خيالاتهم بالصور "الفانتازية" الجميلة!

ومن هنا، فالأمر أبسط مما يرى الخائفون على مستقبل القراءة، وأسهل مأخذًا من التنظيرات "الفانتازية" المنمقة التي تجعل من ظاهرة عادية منصَّة لشنِّ هجماتها المعهودة على الأدب العربي الرفيع!